رسالة الحاسد والمحسود للجاحظ
(دراسة في الدلالة والتشكيل الفني)

الدكتورة سميرة سلامي*

الملخص

أوضح البحث عناية الجاحظ بأدب الطباع، وفلسفة الأخلاق، من خلال تناوله لطباع فئة من البشر، هي فئة الحساد، كما حدد مفهوم الحسد عند الجاحظ، وماهيته، وأسبابه وعلله. وبيّن صفات الحاسد، وأخلاقه، وعلاماته، وكيف يعرف ظاهره وباطنه، ولماذا كثر بين الأقرباء والجيران، وصار في العلماء أكثر منه في الجهلاء.

وتناول البحث، أيضاً، المسحود، فبيّن أنه من ذوي النعم، على تنوعها واختلافها، وأن شر الحاسد يلاحقه على الدوام، وشرّ الحاسد لا يقتصر على المحسود، بل يمتد ليطال المجتمع بأسره، ولا ينجو منه الحاسد نفسه. ولم يجد الجاحظ علاجاً للحاسد، إلا بمقاطعته وعدم مخالطته.

وبيّن البحث، أن الجاحظ جمع كل ما وعاه عقله، مما قاله القدماء عن الحسد والحاسد والمحسود، واختار منه ما يتناسب ونزعته الفنية، التي طغت على الرسالة، مضيفاً إلى ذلك تجربته المضنية مع الحساد، الذين طعنوا في كل ما كتب.

ووجد البحث في الرسالة، أنموذجاً لمنهج الجاحظ في الكتابة، ولطريقته وأسلوبه، ولسمات مدرسته الفنية. وقد صاغها بقلمه الساحر، وبيانه الأخاذ، فجاءت قطعة فنية خالدة.

* قسم اللغة العربية – كلية الآداب والعلوم الإنسانية– جامعة دمشق

مقدمـــة:

لابدّ لكل من يريد أن يعرف سر الإبداع عند الجاحظ، وسر إعجاب الناس بكتبه ورسائله، التي كانت، ومازالت، غذاء للعقول، ومتعة للنفوس، من أن يتعرف على عناصر الإبداع لديه. ويأتي في مقدمتها الإحاطة بعلوم عصره وآدابه، على اختلافها وتنوعها. فكل من يتصفح عناوين مؤلفاته ستتكشف له حقيقة ساطعة، هي تلك المعارف الواسعة، التي شبهها بعضهم بدائرة المعارف. لقد استطاع الجاحظ، بعقله الكبير، وبصيرته النافذة، أن يستوعب ثقافات عصره، وأن يتمثلها بكل فنونها، تمثل المفكر القدير، لتشكل عنصراً مهماً من عناصر الإبداع لديه.

العنصر الثاني، هو ما أفاده من مداخلته للناس، وطول مراسه لشؤونهم وأحوالهم. فقد جالس خلفاء زمانه، وخالط الأمراء والوزراء، وأصحاب المكانات العالية، وتعرف على فئات الناس، من علماء وأدباء وأصحاب مهن، ومعلمين ومغنين وجوارٍ وغلمان...باختصار، لقد خبر طبقات المجتمع كافة، من أعلاها إلى أدناها، فأدرك كل شيء على حقيقته، وعرفه على طبيعته، ما جعله عالماً بطباع الناس، وغرائزهم، وأذواقهم، وأخلاقهم، وتصرفاتهم، وبكل معاني هذه الحياة، خيرها وشرّها، ونفقها وضرها.

والعنصر الثالث، هو ما قام به الجاحظ، من إخضاع تلك المعارف الجمّة، والتجارب العميقة، إلى نزعته الفنية الرائعة، التي طغت على كل ما كتب. ففي كل ما عالج من موضوعات، نقف على عقل العالم وروح الأديب الفنان، بكل ما تعنيه هذه الكلمة من قوة في الفهم، ودقة في الملاحظة، وقدرة على التصوير والتغلغل في دقائق الأمور. وما قيل في بلاغة الجاحظ، وعلو بيانه، وامتاع كتبه، قديماً وحديثاً، أمر يصعب حصره، ويكفي أن نذكر ما ورد في معجم الأدباء، من أن الناس كلّهم عيال على أبي عثمان، في " البلاغة والفصاحة واللّسن، والعارضة"[1]، وقول محمد كرد علي:

(1) – معجم الأدباء، ج16، ص 103.

"ضرب المثل بأدب الجاحظ وبيانه وسعة عبارته، حتى كان يقال، من دليل إعجاز القرآن إيمان الجاحظ به"[2].

باختصار يمكننا القول، إنه بتضافر العلم الغزير، والتجربة العميقة، والفن الرفيع، استطاع الجاحظ أن يقدم لنا تحفاً فنية خالدة، قلّ نظيرها في تراثنا الأدبي. ومن أجمل التحف التي صاغها قلمه الساحر، في تصوير أخلاق الناس، وطباعهم، ودخائل نفوسهم:

رسالة الحاسد والمحسود:

هي رسالة حلّل فيها طباع فئة من البشر، وهو المعروف بعنايته بأدب الطباع، وما كتاب البخلاء إلا تصوير لشخصية البخيل، وغوص في أعماق نفسه وطبعه.

وقبل البدء بدراسة الرسالة، لابد من الإشارة إلى أنه في مجموعة رسائل الجاحظ، التي نشرت بأربعة أجزاء، وردت الرسالة التي نحن بصدد دراستها، تحت عنوانين، وفي جزءين مختلفين، ففي الجزء الأول، هي الرسالة التاسعة، وعنوانها "كتاب فصل ما بين العداوة والحسد"، وفي الجزء الثالث هي الرسالة الأولى، وعنوانها: "من كتابه في الحاسد والمحسود". وأستطيع الجزم بأن الرسالتين في الأصل رسالة واحدة، أو كتاب واحد عنوانه الحاسد والمحسود، وأن رسالة "فصل ما بين العداوة والحسد" ليست إلا فصلاً من كتابه المذكور، بدليل أن ما ورد في رسالة " الحاسد والمحسود" هو مختارات من خمسة فصول. وهذا يشير إلى أن "فصل ما بين العداوة والحسد" هو فصل من الكتاب المذكور، يميز فيه الجاحظ بين العداوة والحسد، وقد أورده الناسخ كاملاً. وأمر آخر أكثر دلالة على ما ذهبنا إليه، هو أن الجاحظ ذكر في رسالة الحاسد والمحسود، أن أحدهم طلب منه أن يكتب له في الحسد، ما هو، وفيمن هو و..... . وقد جاءت إجابة الجاحظ عن تلك الأسئلة، موزعة بين الرسالتين السابقتين، وقد يرد قائل، أن لكل رسالة مقدمة

(2) – أمراء البيان، ج2، ص 340.

مستقلة، وأقول بأن هذا أيضاً مما عرف به الجاحظ، فرسالته "مناقب الترك"[3] التي قدمها إلى الوزير الفتح بن خاقان، وزير الخليفة المتوكل، جاءت في ثلاثة أقسام، وثلاث مقدمات، تبيّن من إحداها، أن الجاحظ، كان يكتب الرسالة، أحياناً، ثم يتركها مدة، ثم يعود ليضيف إليها، فيقدم لها من جديد.

وقد لاحظ بعض الدارسين، وجود اختلاف في عناوين بعض الرسائل، بين مجموعة وأخرى، وعزا ذلك إلى النساخ الذين "كانوا يضعون للرسالة الواحدة أكثر من اسم، مما أوجد اللبس والاضطراب في إحصاء آثار الجاحظ"[4]. لهذا، سيتناول البحث رسالة الحاسد والمحسود بجزءيها.

مسألة أخرى، أحب أن أشير إليها، وهي زمن كتابة الرسالة، وإلى من قدمها الجاحظ. ففي كثير من الرسائل التي قدمها الجاحظ إلى شخصيات معروفة، كان الناسخ يذكر اسم من قدمت له، أما في رسالة الحاسد والمحسود فلم يفعل ذلك. لكننا نستطيع معرفة اسم المهداة إليه، مما ورد في الرسالة. ففيها يجيب الجاحظ صديقه الذي حذّره من الحساد بقوله: "إني أقول بيتين هما جوابك، وجواب الحساد:

إن ابــن يحيــى عبيــد اللــه أمّتنــي من الحوادث بعد الخوف مـن زمنـي

فلســت أحــذر حســادي وإن كثــروا ما دمت ممسكَ حبلٍ من أبي الحسن"[5]

ويخاطب الجاحظ، بعد ذلك، من يوجه إليه الرسالة، فيؤكد له، أن استهانته بالحساد جاءت عندما اعتلق حبائله، وأمن لذلك شرّهم [6]، هو في الرسالة، يقرّ بأنه يعيش "في منعة من عزّ أبي الحسن ....ومعقل لا يسامى ولا ينال"[7]. فصاحب العزّ والمنعة،

(3) – وردت الرسالة في الجزءالأول، ص 7–66.

(4) – النثر الفني وأثر الجاحظ فيه، عبد الحكيم بلبع، ص 197.

(5) – الرسائل، ج 1، ص 263.

(6) – السابق نفسه.

(7) – السابق، ص 262.

والمعقل الذي لا يسامى ولا ينال، والقادر على حماية من حوله، ليس إلا الوزير الفتح بن خاقان، وزير المتوكل، وهو أبو الحسن عبيد الله بن يحيى بن خاقان، الذي قتل مع خليفته سنة 247هـ. وتشير المصادر التاريخية، إلى صداقة حميمة كانت بينه وبين الجاحظ، وهو الذي قدم له الجاحظ رسالة مناقب الترك.

هذا يعني أن الرسالة ألفت في المرحلة المتأخرة من عمر الجاحظ، أي في مرحلة نضجه الفكري والفني، فلا نستغرب، بعد ذلك، أن نقرأ فيها الثقافة الواسعة، والرواية الغزيرة، المختارة بذوق رفيه، وأن تكون قمة في البيان والبلاغة، وأنموذجاً لأدب الجاحظ، وطريقته في الكتابة، ونزعته الفنية، التي ميزت أدبه من أدب غيره، وأن تكون، أخيراً، صورة جليّة لتجربة الجاحظ العميقة، مع جيش حساده، الذين عانى منهم الكثير طوال حياته.

لقد عرض الجاحظ في رسالة الحاسد والمحسود، الكثير مما وعاه عقله، من أقوال القدماء عن الحسد والحاسد، وأضاف إليه خبرته بطبائع الحساد. فموضوع الرسالة مما اهتم به الجاحظ كثيراً، فلا نكاد نقرأ له كتاباً، إلا ونجده يقول فيه شيئاً عن الحسد، كما فعل في الحيوان والبيان والتبيين ورسالة الجد والهزل، ومناقب الترك، والمعاش والمعاد، وغيرها. لكن هذه الرسالة جامعة، شاملة للموضوع، من كل أطرافه. وما قد نجده في كتبه الأخرى، عن الحسد، ولا نعثر عليه في هذه الرسالة، فلأن ما وصلنا من الرسالة هو مختارات من بعض فصولها، والأرجح أنه أثبت في أصل الرسالة كل ما كان قد ذكره سابقاً عن الحسد.

فما هو الحسد؟ وماذا قال أعلم الناس بطبائع الحساد فيهم، وفي صفاتهم، وشرورهم، وآلامهم، وعلاجهم..

ما هــو الحســد:

الحسد في اللغة هو"أن يرى الرجل لأخيه نعمة فيتمنى أن تزول عنه، وتكون له دونه"[8]. وقال الجاحظ في هذا المعنى: "الحاسد إنما همّه أن ينزع الله منك النعمة، التي أعطاكها، فلا يغفل أبداً"[9]، وأورد قول معاوية: "يمكنني أن أرضي الناس كلهم إلا حاسد نعمة، فإنه لا يرضيه منها إلا زوالها"[10]. والحسد برأيه، طبع في النفس، وخلق وسجيّة، فلا يكون في الإنسان "إلا عن فساد الطبع، واعوجاج التركيب، واضطراب السوس"[11]. وهو "جوهر"[12] في النفس، و"طبيعة مركبة، وجبلّة مفطورة"[13]. هذا يعني أن الحسد حقيقة ثابتة في نفس الحاسد، لا تزول و"الحقائق النفسية كالدم نجده في كل عرق"[14].

والحسد من الأخلاق المذمومة، فهو "أخو الكذب"[15] وعقيد الكفر، وحليف الباطل، وضد الحق، وحرب البيان، فقد ذم الله أهل الكتاب به فقال جل جلاله: (ودّ كثير من أهل الكتاب لو يردونكم من بعد إيمانكم كفاراً حسداً من عند أنفسهم)[16][17]. وهو خلق لئيم لأنه "موكل بالأدنى فالأدنى، والأخص فالأخص"[18]. والحسد قديم قدم الإنسان، إذ

(8) – لسان العرب، مادة حسد.
(9) – رسائل الجاحظ، الحاسد والمحسود، ج 3، ص8.
(10) – السابق، ج 1، ص 243.
(11) – السابق، ص 244، والسوس: السجية.
(12) – السابق نفسه.
(13) – رسالة الجد والهزل، ج 1، ص92.
(14) – ألوان، د. عبد الكريم الأشتر، ص 45.
(15) – الحاسد والحسود، ج 1، ص 244.
(16) – سورة النساء، آية 4.
(17) – الحاسد والمحسود، ج3، ص 8.
(18) – السابق، ج 1، ص 243.

رافقه منذ وجوده على الأرض، فكان أول معصية حدثت في الأرض، وقد أشار الجاحظ إلى ذلك، فذكر قصة ابني آدم، إذ قتل قابيلُ هابيلَ "فعصى ربه، وأثكل أباه، وبالحسد طوعت له نفسه قتل أخيه، فقتله، فأصبح من الخاسرين"[19]. وفي قدمه قال النبي ﷺ : "دب إليكم داء الأمم من قبلكم، الحسد والبغضاء"[20]. وفي هذا الداء القديم، الذي أصاب البشر منذ وجدوا، قال الجاحظ: "والحسد، أبقاك الله، داء ينهك الجسد، ويفسد الود، علاجه عسر، وصاحبه ضجر، وهو باب غامض، وأمر متعذر، وما ظهر منه فلا يداوى، وما بطن منه فمداويه في عناء"[21].

فعلى الرغم من خبرة الجاحظ بطبيعة الحسد والحساد، واستقصائه لما قيل فيه، فقد اعترف بغموضه، وتعذر فهم ماهيته على حقيقتها، إلا أننا نستطيع القول، إن الحسد، كما عرفه لنا، يجمع كل خلق ذميم، ومن يكمن في صدره، لا يمكن أن يتمتع بفضيلة أخرى.

مـن هـو المحسـود:

نفهم من كلام الجاحظ أن المحسود هو كل صاحب نعمة. والنعم التي يتمنى الحاسد زوالها عن المحسود كثيرة ومتنوعة، فالمال والغنى، والعلم والتقى، والعز والجاه، والشرف، والسيادة، والرياسة.... كلها نعم أصحابها محسودون، وكلها ورد ذكرها في رسالة الجاحظ، من خلال ذكر آية أو حديث، أو خبر، أو قول مأثور أو مثل، أو في معرض شرح آرائه في الحاسد والمحسود، وعلى العموم، فأبناء النعم، عنده، كلهم محسودون[22]، وكل ما يمنه الله على عبده، من فضله، ونعمه، يكون موضوعاً لحسد الحاسد، قال تعالى: (أم يحسدون الناس على ما آتاهم الله من فضله، فقد آتينا آل

(19) – السابق، ج 3، ص 9.
(20) – الجامع الصغير، ج 1، ص 563.
(21) – الحاسد والمحسود، 7/3.
(22) – السابق، 242/1.

ابراهيم الكتاب والحكمة، وآتيناهم ملكاً عظيماً)[23]. وقد ذكر الجاحظ الآية، وأورد قول عمر بن الخطاب: "ما أحدث الله بعبد نعمة إلا وجدت له عليها حاسداً، ولو أن امرأ كان أقوم من القِدْح، لوجدت له غامزاً"[24]. وفي المثل قيل: "الحسن محمود"[25]، و "لن تعدم الحسناء ذاماً"[26]. وشبيه بهذا ما ذكره في البيان والتبيين، وهو قول الشاعر:

كضـــرائر الحســـناء قلـــن لوجههـــا حسداً وبغياً إنـــه لدميـــم[27]

والحسد على فعل الله عزّ وجلّ، كحسن الصورة ، وجميل المحاسن، وفصاحة اللسان، وحسن البيان، أمر استهجنه الجاحظ، لأن الحاسد فيه مغرىً بفعل الله. وقد صرح الجاحظ بأنه رأى الكثيرين من هؤلاء، وسمع بهم[28]، وهو يشير بذلك إلى حساده...

ولأن المحسود هو عنوان النعمة، ودليل الفضيلة، وشاهد العز والسيادة، فقد تمثل الجاحظ بأشعار، تمنى أصحابها ألا ينقص الله من حسادهم أحداً، وذكر أدعية بعض الصالحين بأن يجعل الله أولادهم محسودين لا حاسدين، وأن يكثر من حسادهم، لأنهم لا يكثرون إلا بكثرة النعمة. والحق أني قرأت أشعار كثيرة لا مجال هنا لذكرها، مدح فيها الشعراء أقواماً بأنهم محسودون، وجعلوا شر الناس منزلة من عاش في الناس غير محسود، ومنهم من دعا لحساده بالخير والسقيا، لأنهم عنوان سموّه وعلو قدره.

ولأن الحسد، كما بيّنا، يجمع كل الخصال الذميمة، فقد فضّل الجاحظ العداوة عليه، وعقد فصلاً في رسالته سمّاه:

---

(23) – سورة النساء، آية 54.

(24) – الحاسد والمحسود، 242/1.

(25) – السابق نفسه.

(26) – السابق نفسه.

(27) – البيان والتبيين، 217/3.

(28) – الحاسد والمحسود، 244/1.

ما بين العداوة والحسد:

استعرض الجاحظ، في أماكن متفرقة، من هذا الفصل، الأسباب التي جعلته يفضل العداوة على الحسد، وقد أسهب في الحديث عنها، لكننا يمكن أن نجملها بما يلي[29]:

- الحسد جوهر، وهو تركيب لعلة، فهو لا يزول إلا بزواله، والعداوة اكتساب، تحدث لعلة، فإذا زالت العلة، زالت معها.
- الحسد نار وقوده الروح، لا تبوخ أبداً أو يفنى الوقود، والعداوة جمر يوقده الغضب ويطفئه الرضا.
- كل حاسد عدو، وليس كل عدوّ حاسد.
- الحسد غضّ جديد، والعداوة تخلق وتُمَل.
- الحسد مسلوب العقل، فهو في كل حين وزمان ووقت، والعداوة لها عقل تسوس به نفسها، فلا تظهر إلا في أوقات الهتر.
- الحسد ذليل، والعداوة عزيزة منيعة.
- الحسد والكذب أليفان لا يفترقان، والعداوة قد تخلو من الكذب.
- حساد النعمة إذا أعطوا منها، ازدادوا عليها غيظاً، وبها إغراء، "وربما كان الحسود للمصطنع إليه المعروف أكفر له، وأشد احتقاداً، وأكثر تصغيراً له من أعدائه"[30]. وأعداء النعمة إذا شوركوا فيها، تزحزحوا عن عداوتها، وصاروا من المحامين عنها.
- الحسد آلم وآذى وأوجع وأوضع من العداوة، لأنه مغرىً بفعل الله عزّ وجلّ، والعداوة عارية من ذلك، فهي تتصل بأفعال العباد، فلم نسمع أحداً عادى أحداً لجمال صورته، وفصاحة لسانه، وحساد هذه الطبقة كثيرون.

---

(29) – ذكر الأسباب في ج 1، ص 242 – 260.

(30) – رسالته عن الحاسد، ج 3، ص 16. وفي مثل هؤلاء قال المتنبي:

وأظلم أهل الظلم من بات حاسداً لمن بات في نعمائه يتقلّب (ديوانه 185/1)

- الحسد أخسّ وأغبن من العداوة، لأن الأمم كلها ذمته وعابته، وما أمر به، أو ندب إليه، أو نبّه عليه أحد من العرب والعجم، في حال من الأحوال. وقد نبه على العداوة، وعظم شأنها عندهم، حتى اختلفوا في وجوه العمل فيها.

مـن هــم الحســاد:

أقرّ الجاحظ منذ بداية الرسالة، بأن الحسد كثر في الأقرباء وقلّ في البعداء، وأنه في العلماء أكثر منه في الجهلاء، وقد خصّ به الجيران من بين جميع أهل الأوطان، ودب في الصالحين أكثر منه في الفاسقين[31]. لكن رأيه مفصلاً، في سبب ذلك، لم يصلنا، باستثناء رأيه في كثرة الحسد بين العلماء، الذي ورد في فصل ما بين العداوة والحسد، وهو الفصل الوحيد الذي وصل إلينا كاملاً. ومع ذلك، نستطيع مما ورد في الرسالة وغيرها، أن نتعرف على رأي الجاحظ في هذا الموضوع.

لقد أكد الجاحظ، كما أشرنا، أن الحسد يكثر بين الجيران والأقرباء. فهو "موكل بالأدنى فالأدنى، والأخص فالأخص"[32]، ورأى في مكان آخر، أن الحسد" عرض في طبائع الغرباء، وجوهر في طبائع الأقرباء"[33]، وأن "الأرحام مولعة بالتحاسد، لهجة بالتقاطع"[34]. ولهذا كان، برأيه، النسب بين الغرباء الذين يتشاكلون في الأخلاق، ويتقاربون في الطباع، أقرب من نسب الرحم، وأفضل وأبعد عن العداوة والفساد[35]. وإضافة إلى تحاسد الجيران والأقرباء، ذكر "تحاسد الأشكال في الصناعات"[36]، ومنها تحاسد صناعة العلم.

---

(31) – رسالة الحاسد والمحسود، 7/3.

(32) – السابق، 243/1.

(33) – رسالة الجد والهزل، 191/1.

(34) – السابق نفسه. وفي الحسد والعداوة بين الأقارب قال التوحيدي: "الأقارب عقارب، وأمسّهم بك رحماً أشدهم عليك ضرراً" البصائر والذخائر، 243/1.

(35) – رسالة الجد والهزل، 191/1.

(36) – السابق، ص 186.

ويذكر من أسباب الحسد بين الجيران، أن الجار الحاسد، يكون على علم ودراية بكل ما يخص جاره المحسود، فهم "طلائع عليك، وعيونهم نواظر إليك، فمتى كنت بينهم مُعدماً فأيسرتْ، فبذلت وأعطيت، وكسوت وأطعمت، وكانوا في مثل حالك، فاتضعوا وسلبوا النعمة، وأُلبِستها أنت، فعظمت عليهم بلية الحسد، وصاروا منه في تنغيص إلى الأبد"(37).

وكذلك الحال بين القريب وقريبه، فهو مطلع على كل أحواله ونعمه، وهو ينافسه في ميراثه، وينازعه على تخوم أرضه، وتلك هي أمتن الأسباب إلى الشر والحسد(38). فإذا ما اجتمعت القرابة والجوار، كان سبب الحسد والعداء أقوى، وكان الداء أدوى، وقس على ذلك إذا ما اجتمعت القرابة والجوار والصناعة الواحدة(39).

أما لماذا وجد الحسد في العلماء أكثر من الجهلاء، فهذا ما عرضه الجاحظ مفصلاً، فخبرته به كبيرة، ومعاناته منه أكبر، يقول في ذلك: "وهو في أهل العلم أكثر، وعليهم أغلب، وبهم أشدّ لصوقاً منه بغيرهم من الملوك والسوقة. وكأن من ناله التقصير في صناعة العلم، عن غايته القصوى، قد استشعر حسد كل ما يرد عليه من طريف أدب، أو أنيق كلام، أو بديع معنى، بل قد وقع بخلده لضعفه، وقرّ في روعه لخساسته، أنه لا ينال أحد منهم رياسة في صناعة، ولا يتهيأ له سياسة أهلها، إلا بالطعن على نواصيهم، والعيب لجلَّتهم، والتحيّف لحقوقهم"(40).

---

(37) – الحاسد والمحسود، 12/3.
(38) – الجد والهزل، 186/1.
(39) – السابق نفسه.
(40) – أشار الجاحظ إلى هذا المعنى، أيضاً، في البيان والتبيين، 217/3، وأورد قول الشاعر:

حسدوا الفتى إذ لم ينالوا سعيه فالقوم أعداء له وخصوم

ويذكرنا الجاحظ هنا بالمتنبي، الذي لا تقل خبرته ومعاناته من الحساد عن الجاحظ، وقد غصَّ ديوانه بالحديث عنهم، ومما قاله في هذا المعنى:

أفي كل يوم تحت ضبني شويعر ضعيف يقاويني، قصير يطاول /ديوانه 117/3

وقال أيضاً: أرى المتشاعرين غروا بذمي ومن ذا يحمد الداء العضالا

ومن يك ذا فم مرّ مريض يجد مرّاً به الماء الزلالا /ديوانه 228/3

فالحاسد من أهل صناعة العلم، ضعيف في علمه، مقصر عن بلوغ الغاية فيه، وهو لضعفه وتقصيره، يحسد الأشراف من العلماء، وكل متفوق في صناعة العلم والأدب والشعر، ويدفعه حسده إلى ذمّهم، والطعن في علمهم، والافتراء على كل جليل منهم، وينصب العداء له، ظنّاً منه، أنه بذلك، يبلغ شأوهم، ويترأسهم في الصناعة. وقد عزّز الجاحظ رأيه بذكر ما قاله له مسلم بن الوليد، الشاعر المعروف بصريع الغواني الذي أكد أنه يتعرض للذم والهجاء من قبل الحمقى من الشعراء، لأنه خيّل إليهم أنهم لا يقضى لهم بجودة الشعر، إلا بهجائه والطعن في شعره[41]. ويأتي الجاحظ بالدليل تلو الآخر، ليبين أن التقصير والضعف، في أهل صناعة العلم، هما سبب الحسد والطعن في كتب ذوي العلم الحقيقي، ومن هذه الأدلة ، قول يحيى بن خالد البرمكي، وكان قمة في البيان والبلاغة[42]، أن كتبه كانت تعرض "على من يغلظ فهمه عن معرفتها... فيطعن فيها، ولا يدري ما يقرأ عليه منها. إلا أن نار الحسد تلهبه، فيهذي هذيان المريض، ويهمز همزات الغيرى"[43]، ويظهر جهله الشنيع حين لا يكتفي بالطعن فيها، بل يسرق ألفاظها ومعانيها ويستخدمها في كتبه، فيعرف الناس حقيقته.

الجاحظ العالم المحسود:

لقد أطال الجاحظ كلامه في حسد العلماء، لأن ذلك جزء من تصوير معاناته المريرة، من حساد غلاظ، من طبقة العلماء، لاحقوه وآذوه، واتخذوا منه دريئة، يسلطون عليها سهام حقدهم وحسدهم. لقد عادوه في فكره وعلمه، ومذهبه الكلامي، وفي معانيه وألفاظه، وطعنوا في كل ما كتب، فلم يبقوا له كتاباً واحداً، لم يلتمسوا تهجينه بكل حيلة،

(41) – الحاسد والمحسود، 246/1.

(42) – ينظر في بلاغة يحيى ما ورد في العقد الفريد، ج 5، ص 58 – 59.

(43) – الحاسد والمحسود، 246/1.

وإن كان بلغ من إحكامه وتجويده شوطاً بعيداً[44]. وأظن ظناً يكاد يقترب من اليقين، أن الدافع الأساسي لكتابة هذه الرسالة، هي عرض تلك المعاناة، لاسيما وأنه ألفها في أواخر سني حياته، بعد أن لم يعد يستطيع صبراً على هؤلاء، وهو المعروف برحابة الصدر. ولماذا لا يصور للناس هذه الطبقة وشرورها، فيحذروها، وهو الذي صوّر مجتمعه بكل فئاته. ولماذا، أيضاً، لا يستبق الأمر، فيلفت نظر الوزير إلى ما يمكن أن يوجه إلى كتابه من طعون! هذا ما ظهر جلياً، منذ البداية، إذ ألحّ في طلبه من الوزير أن يقرأ الرسالة، ويقف على حدودها[45]، فإذا ما تعرض لها أحد بالطعن، يكون على بيّنة، فيقارن بين القولين، ويميز الحق من الباطل، يخاطبه قائلاً: "فإن قدح، جعلني الله فداك، بالحسد قادح فيما أؤلفه من كتابي لك، وسبق إلى وهمك شك فيه، أعلمتني النكتة التي قدح فيها، ثم قابله بجوابي، فإني أرجو ألا تحتاج إلى حاكم عند تجاثي القولين بين يديك، لعلو الحق على الباطل، ودموعه إياه"[46]. ويكرر للوزير خشيته من هؤلاء الحساد، ومن انتحال وضع كتب مثل كتبه فيقول: "ولست آمن، جعلني الله فداك، أن تكون هذه الكتب، التي أعني بتأليفها، وأتأنق في ترصيفها، يتولى عليك من قد لبس لباس الزور، في انتحال وضع مثلها، ونسب إلى نفسه القوة على نظائرها، والمعرفة بما يقاربها... وتشبع بما لم يطعمه الله منها"[47].

لهذا السبب، وجدنا الجاحظ يشرح أمر هذه الفئة من الحساد، بشيء من الإسهاب[48]، فيبدأ بوصف العالم المحسود، وصفاً نقرأ فيه وصفاً دقيقاً لنفسه مع حساد زمانه، وهو لا يختلف عما وُصف به الجاحظ العالم، الأديب، المفكر، المطلع على كل

(44) – عرض الجاحظ طعن الحساد في كتبه عامة في مقدمة الجزء الأول من كتاب الحيوان، وفي رسالته في المغنين، إضافة إلى رسالته هذه.

(45) – الحاسد والمحسود، 237/1.

(46) – السابق، 251.

(47) – الحاسد والمحسود، 239/1.

(48) – السابق، ص 238 – 239.

شيء، في معظم الدراسات والبحوث التي كتبت عنه. فيرى أن مثل هذا العالم لم يخل منه زمن من الأزمان الماضية، كما لم يخل من حساد له، قد لبسوا لباس الزور، فاقتفوا آثاره في ألفاظه ومعانيه، لينسبوا إلى العلم، ويحلوا محلهم.

وينتقل الجاحظ من الكلام العام، عن العالم المحسود، إلى عرض تجربته الشخصية مع الحساد من أهل العلم، الذين عرفهم "بالتجربة والابتلاء"[49] فيؤكد أنه ربما ألف الكتاب المحكم المتقن في أي موضوع، وينسبه إلى نفسه فيتواطأ على الطعن فيه، جماعة من أهل العلم، بالحسد المرّكب فيهم. ولا يقفون عند حدّ الطعن، بل يسرقون ألفاظه ومعانيه ويؤلفون منها كتباً، يدعونها لأنفسهم، وربما ألف الكتاب الذي هو دونه، وينسبه إلى غيره، كابن المقفع والخليل ويحيى بن خالد وغيرهم.. فيقبل عليه أولئك الحساد أنفسهم، يتدارسونه، ويتأدبون به، ويستنسخونه. ويتابع الجاحظ فيقول: "ولربما خرج الكتاب من تحت يدي مُحْصَفاً، كأنه متن حجر أملس، بمعان لطيفة، وألفاظ شريفة، فأخاف عليه طعن الحاسدين، إن أنا نسبته إلى نفسي... فأظهره مبهماً غفلاً في أعراض الكتب، التي لا يُعرف وُضّاعها، فينهالون عليه، انهيال الرمل، ويستبقون إلى قراءته سباق الخيل يوم الحلبة إلى غايتها"[50].

ويخبرنا الجاحظ بأكثر من ذلك، في رسالة أخرى، إذ بلغ به الخوف من افتراء هؤلاء، أنه كان قبل أن ينشر كتابه بين الناس، يضع نسخة منه أمانة في أعناق الثقات والأمناء، ممن يصونون الوديعة ويظهرون الحق، إن تعرض الكتاب للتحريف، أو ألحق به ما ليس منه[51].

إن اختبار الجاحظ لحساده، وتجربته المؤلمة معهم، مكنته من معرفة كل ما يمكن أن يلجؤوا إليه من أصناف الخدع والحيلة والدهاء، لإسقاط كتبه، فشرح أساليبهم،

(49) – السابق، ص 247.

(50) – السابق، 247 – 248.

(51) – ينظر ذلك في رسالة طبقات المغنين، 3/100–101.

وبيّن حيلهم، وصنفهم إلى طبقات[52] تتدرج في الخطورة، فهناك الحاسد الجاهل، وهو أهون شوكة، ثم الحاسد العارف، ومنه تأتي المصائب، والحاسد الحاذق، والبليّة منه كبيرة، وأخيراً الحاسد النبيل الحاذق، وذكر من هذا الصنف أسماء بعض الفقهاء، وحفاظ الحديث[53]، وخطورة هؤلاء تأتي من انقياد العامة لهم، وتقبلهم لكل ما يقولون، ومن قدرتهم على بلوغ ما يريدون، دون أن تثبت عليهم حجّة في ذم أو مدح.

صفـات الحاسد وعلاماتــه:

وصف لنا الجاحظ الحاسد، وبيّن لنا علاماته، ومن يقرأ الرسالة كاملة، لابد من أن تظهر شخصية الحاسد، بكل تلك الصفات الذميمة، التي اجتمعت فيه، فجعلت منه مثالاً للإنسان المنبوذ المكروه.

وصفات الحاسد ظاهرة وباطنة، لكنه مهما حاول إخفاءها، فله علامات "تبيّن لك مكنونه بتغير لونه، وتخوّص عينه، وإخفاء سلامه، والإقبال على غيرك، والإعراض عنك، والاستثقال لحديثك، والخلاف لرأيك"[54].

والحاسد بخيل بما ليس عنده، فهو يحقد على سيده إن أفاد غيره، ويتمنى "أن يرجع في هبته إياه، وأن لا يرزق أحداً سواه"[55]. وهو قاسي القلب، ظالم، عاق، قد يظلم أقرب الناس إليه. ومن صفاته النفاق والحقد، فهذا عبد الله بن أبي، الذي كان نسيج وحده في النبل والسؤدد حوّله حسده لرسول الله إلى منافق "وما صار منافقاً حتى كان حسوداً، ولا

(52) – الحاسد والمحسود، 248/1 – 251.

(53) – كان الجاحظ على خلاف مع المفسرين والمحدثين، لأنهم، كما يرى، جمّاعون لم يستخدموا عقولهم فيما يروون، وفيما يفسرون.

(54) – الحاسد والمحسود، 10/3. وخَوص العين: هو ضيقها وغؤورها، وتخاوص الرجل، غض من بصره شيئاً، وهو يحدق النظر، كأنه يقوّم سهماً. اللسان، مادة خوص.

(55) – السابق، ص 8.

صار حسوداً حتى صار حقوداً"[56]. وهو عدوّ باغٍ ، ومتملق مغتاب، ومخادع مخاتل محتال، وهو لئيم دنيء، وذليل وضيع، وخسيس كاذب.....

والحاسد يفقد حريته، ويصير عبداً مملوكاً لحسده، لا يستطيع له ضبطاً أو كتماناً "حتى يتمرد عليه بظهوره.... فهو أغلب على صاحبه من السيد على عبده، ومن السلطان على رعيته، ومن الرجل على زوجته، ومن الآسر على أسيره .... وكان ابن الزبير بالصبر موصوفاً، وبالدهاء معروفاً، وبالعقل موسوماً.... فأظهر بلسانه حسداً كان أضب عليه أربعين سنة لبني هاشم، فما اتسع قلبه لكتمانه، ولا صبر على اكتتامه"[57].

وهنا تظهر براعة الجاحظ في الوصف النفسي، وتحليل نفسية الحاسد للكشف عن خفاياها. وهذه البراعة تطل برأسها، في كل مرة يتصدى فيها الجاحظ لوصف طباع البشر وأخلاقهم. وقد برزت بأجلى صورها في كتاب البخلاء، الذي قال أنه طلب منه أن يبين فيه "الهنات التي نمّت على المتكلفين، ودلت على حقائق المتموهين، وهتكت عزّ أستار الأدعياء، وفرَّقت بين الحقيقة والرياء..."[58]. وقد استطاع الجاحظ فعلاً أن يكشف مافي دخائل نفوس البخلاء، كما استطاع في رسالته عن الحسد، أن يجيب من سأله عن الحسد، كيف يعرف ظاهره ومكتومه، وكيف يعلم مجهوله ومعلومه؟

لقد عرف الجاحظ أن الإنسان ربما حاول الظهور على غير حقيقته، لكن خبرته الطويلة بطباع البشر، مكنته من كشف الحقائق وإظهارها. فعبد الله بن الزبير، الذي كتم في قلبه، كرهه لبني هاشم، أربعين سنة اغتنم أول فرصة، ليعلن هذا الكره في وجه الصحابي عبد الله بن عباس الهاشمي. ويفسر الجاحظ ذلك بقوله: "ولقد أجلت الرأي ظهراً لبطن، وفكرت في جوابه لابن عباس، أن أجد له معنى سوى الحسد، فلم أجده، وكانت وخزة في قلبه فلم يبدها وفروع بني هاشم حول الحرم باسقة، وعروق دوحاتهم بين

(56) – السابق، ص 11.
(57) – السابق، ص 12 –13.
(58) – البخلاء، ص 3.

أطباقها راسية، ومجالسهم من أعاليها عامرة، وبحورها بأرزاق العباد زاخرة، وأنجمها بالهدى زاهرة، فلما خلت البطحاء من صناديدها، استقبله بما أكنّ في نفسه"[59].

لقد حلل الجاحظ نفسية هذا الحاسد، وكشف سبب هذا الكره الذي نهش قلبه، فوجد أنه لم يكن إلا نتاج حسده لبني هاشم، لما عرفوا به من مكانة وعزّ وجاه ونعم. وقد كبت هذا الحسد إلى أن انقلب الزمان عليهم، وسيطر خصومهم من بني أمية، فجهر بأعلى صوته "إني لأكتم بغضكم أهل البيت مذ أربعين سنة"[60]. وأسعفته قدرته على تحليل النفوس، في كشف حيل الحاسد وخداعه ودهائه. فالحاسد قد يطعن في الكتاب، فإن لم يأخذ بطعنه أحد، يعترف بخطئه، ويعلن أن ذلك كان عن سهو وغفلة، لكن اعترافه ليس من باب الفضيلة، بل ليقال "إنه لم يرجع عن قوله، واعترف بالخطأ إلا من عقل وازع، ودين خالص. وإنما ذلك حيلة منه ودهاء... وكان يقال: من أبلغ الطعن على ما تريد الطعن عليه، أن تطعن ثم تستغفر الله، ثم تتمهل فترة، ثم تعود لطعن هو أعظم منه وأطمّ، ليوثق بك فيه"[61]. وحاسد آخر يسمع الطعن في المحسود، فيضحك ولا يتكلم، ولا يخفى على الجاحظ ما وراء هذا الضحك والسكوت من إقرار بالطعن. وثالث يسمع الطعن ويُسكت القائل، ويدعو الله بالصلاح للمحسود، ويكون بذلك قد أكد ما قاله الطاعن[62]... إلى غير ذلك من الحيل والخدع، التي يحاول الحاسد أن يخفي وراءها حسده، لكنها لا تخفى على الجاحظ، العالم بالطباع، والقادر على معرفة ما في داخل نفوس البشر.

(59) – الحاسد والمحسود، 14/3.

(60) – السابق، ص 13.

(61) – الحاسد والمحسود، 249/1 – 250.

(62) – ينظر في كشف حيل الحاسد، السابق.

خلاصة القول، إن الجاحظ قد جمع في شخص الحاسد، من الصفات الظاهرة والباطنة، كل خلق ذميم، وكل شيمة منبوذة، وبيّن ذلك بالحجة والمثال، ولابد لمن تجتمع فيه هذه الخصال، من أن يرتكب كل أنواع الشرور بحق المحسود.

شــرور الحاسـد:

الحسد شرّ كله، قال تعالى مخاطباً نبيّه وطالباً إليه الاستعاذة: (ومن شرّ حاسد إذا حسد)[63]. وشرور الحاسد لا تقتصر على المحسود، بل تمتد لتشمل المجتمع بأسره، ولا يسلم منها الحاسد نفسه.

ومن أظهر شرور الحاسد، تهجين ما يحسد عليه، وتقبيحه، وتصغيره والطعن في أهله. فمن شأنه "إذا كان المحسود غنياً، أن يوبخه على المال، فيقول: جمعه حراماً، ومنعه آثاماً، وألّب عليه محاويج أقاربه، فتركهم له خصماء، وأعانهم في الباطل، وحمل المحسود على قطيعتهم في الظاهر، وقال له: لقد كفروا معروفك، وأظهروا في الناس ذمك، فليس أمثالهم يوصلون، فإنهم لا يشكرون"[64]. ويتابع الجاحظ في بيان شر الحاسد على الغني، ويطيل في كلامه، لينتقل إلى تهجين نعمة العلم عند العالم، فيقول: إذا كان المحسود عالماً قال الحاسد: "مبتدع، ولرأيه متبع، حاطب ليل، ومبتغي نيل، لا يدري ما حمل، قد ترك العمل، وأقبل على الحيل.... فقبحه الله من عالم ما أعظم بليته، وأقل رعته، وأسوأ طعمته... وإذا كان المحسود ذا دين قال: متصنع يغزو ليوصى إليه، ويحج ليثنى بشيء عليه، ويصوم لتقبل شهادته، ويظهر النسك ليودع المال بيته..."[65]. وعلى العموم، فإن الحاسد يحاول تجريد المحسود من كل فضيلة، ويتمنى له كل أنواع الشرور، كالفقر والضلال والمصيبة، وسوء السيرة، ويعمل ما في وسعه، ليحقق ما يتمناه. ويرى الجاحظ أنه لولا نصرة الله للمحسود، وحمايته له، وحجب شر الحاسد عنه

(63) – الفلق / 5.

(64) – الحاسد والمحسود، 9/3.

(65) – السابق، ص 10.

"لم يأت يوم إلا وكان مقهوراً، ولم تأت ليلة إلا وكان عن منافعه مقصوراً، ولم يمس إلا وماله مسلوب، ودمه مسفوك، وعرضه بالضرب منهوك"(66).

أما شر الحاسد على المجتمعات، فيكمن في محاولة إشاعة الفرقة والخصام بين الأفراد، وقطع صلة الرحم بين الأقرباء، فهو يولد العداوة ويسبب كل قطيعة، ويفرق كل جماعة، وينشر الشر والبغضاء أينما حلّ، ولا يخفى ما في ذلك من تحطيم لسعادة الإنسان، وقضاء على انسجام المجتمعات الإنسانية، الذي حرص الجاحظ عليه كل الحرص.

وشر الحاصد على نفسه يكمن فيما يسببه له حسده من آلام وعذاب.

آلام الحاســد:

إن ما يعانيه الحاسد من آلام، أكبر مما يسببه للمحسود، فهو في همّ وغمّ دائمين، دون جدوى يجنيها، وهو في يقظة مستمرة، لا يغفل أبداً، يفكر آناء الليل وأطراف النهار، كيف ينزع النعمة عن محسوده. وفي اليقظة الدائمة إنهاك للروح والجسد، "فالحسد نار وقوده الروح"(67)، ونيرانه مستعرة تحرق الأكباد، وقد وصف الجاحظ هذه النار الحارقة في قوله عن الشعوبية: "وقد شفى الصدور منهم، طول جثوم الحسد على أكبادهم، وتوقد نار الشنآن في قلوبهم، وغليان تلك المراجل الفائرة، وتسعّر تلك النيران المضطرمة"(68).

(66) – السابق، ص 12.

(67) – السابق، 244/1، وانظر أيضاً ص 246.

(68) – هذه النار الحارقة لقلوب الحساد، نجد شبيهاً لها في أماكن عدة من ديوان المتنبي، كقوله:

قطعتهم حسداً أراهم ما بهم فتقطعوا حسداً لمن لا يحسد

حتى انثنوا ولو أن حرّ قلوبهم في قلب هاجرة لذاب الجلمد /ديوانه 335/1

وقال في وجعهم:

سوى وجع الحساد داو فإنــه إذا حلّ في قلب فليس يحول /ديوانه109/3

وبالقياس إلى شدة آلام الحاسد وعذاباته، وطول همومه وأحزانه، وتنغص عيشه، وكدر نفسه، فقد عدّه الجاحظ "عند ذوي العقول مرحوماً، ولديهم في القياس مظلوماً. وقد قال بعض الأعراب: ما رأيت ظالماً أشبه بمظلوم من الحاسد: نفسٌ دائم، وقلب هائم، وحزن لازم"[(69)].

وآلام الحاسد كما يرى الجاحظ، لا تنتهي في دنياه، بل تمتد إلى آخرته، لأن الحسد أسرع في الدين، من النار في الخطب اليابس" [(70)]، والحاسد " هدم إسلامه بحسده... وتبوأ النار بعد الجنـة"[(71)].

والجاحظ، الذي حكم العقل في كل أمر، وطالب الآخر بالعدل والإنصاف، في كل مناسبة، رأى أنه "من العدل المحض، والإنصاف الصحيح، أن تحط عن الحسود نصف عقابه، وأن تقتصر على بعض مقداره، لأن ألم حسده لك قد كفاك مؤونة شطر غيظك عليه"[(72)].

لقد أسقط الجاحظ عن الحاسد نصف عقابه، ويمكننا القول – وإن لم يصرح الجاحظ بذلك – إنه أبقى النصف الآخر من العقاب، لأنه يخصّ المجتمع، الذي يسبب له الحاسد ضرراً كبيراً، بما ينجم عن أفعاله من عداوة وفرقة، وقطيعة بين الجماعات. والجاحظ، الذي عرف بنزعته الإنسانية الواضحة، والذي عمل جاهداً، في جلّ ما كتب، لتعميق أواصر الألفة والانسجام بين بني البشر[(73)]، لا يمكن أن يتهاون مع من يسيء إلى وحدة المجتمع الإنساني وتآلفه.

---

(69) – نسب الجاحظ هذا القول إلى بزرجمهر في البيان والتبيين، 207/3.
ونسب إلى علي رضي الله عنه، في محاضرات الأدباء، 253/1، ونسب إلى ابن المقفع، في عيون الأخبار، 9/2.

(70) – الحاسد والمحسود، 8/3.

(71) – السابق، ص 11.

(72) – رسالة الجد والهزل، 169/1.

(73) – تجلى ذلك بوضوح كبير في رسالته مناقب الترك.

عــلاج الحاســد:

صرح الجاحظ، منذ البداية، أن علاج الحاسد عسر، أليس الحسد طبع لا يزول إلا بزوال الحاسد أو المحسود؟ وأكد أن تفادي شروره وضرره، وحماية المجتمع منها، لن يكون إلا بعزله، ومقاطعته، والابتعاد عن مشاكلته، ما استطاع المحسود إلى ذلك سبيلاً. وهو يقدم النصيحة للمحسود بقوله: "فإذا أحسست، رحمك الله، من صديقك بالحسد، فأقلل ما استطعت من مخالطته، فإنه أعون الأشياء لك على مسالمته. وحصّن سرّك منه، تسلم من شره وعوائق ضره، وإياك والرغبة في مشاورته، ولا يغرنّك خدع ملقه، وبيان ذلقه، فإن ذلك من حبائل نفاقه"(74). ويكرر رأيه هذا بلهجة أكثر حدة: "وما أرى السلامة إلا في قطع الحاسد، ولا السرور إلا في افتقاده وجهه، ولا الراحة إلا في صرم مداراته، ولا الربح إلا في ترك مصافاته. فإذا فعلت ذلك فكل هنيّاً مريّاً، ونم رضيّاً، وعش في السرور مليّاً"(75).

وهو ينصح المحسود بألا يتعب نفسه في محاولة التودد إلى الحاسد، لأنه مهما فعل، لن يستطيع كسب ودّه، حتى وإن استكان له، ورفع عنه الأذى، وغفر له زلاته، وصدّق كذبه، واستحسن كل قبيح منه.

والجاحظ لم ينصح غيره بمقاطعة الحاسد، وعدم مخالطته، إلا بعد أن التزم هو بذلك. لقد عرف الداء، ووجد الدواء، فأعرض عن حساده، ولم يجابههم مباشرة، ووجد في قطيعة الحاسد عقاباً له، وسلامة للإنسان والمجتمع، مما قد يسببه الحسد من خلاف وصراع وتناحر.

وإذا كان ثمّة علاج للحاسد، فلا يمكن أن يكون إلا من قبل الحاسد نفسه، وهو أمر شاق وعسر، ويحتاج إلى مجاهدة النفس، وتذليلها على الأخلاق المحمودة، وعلى التخليّ عن كل ما هو قبيح ومذموم، لأن النفس، كما يرى، تستثقل كل ما هو ممدوح،

(74) – رسالة الحاسد والمحسود، 15/3.

(75) – السابق، ص 19.

وتسرّ بالأخلاق المذمومة، فإن أهملها الإنسان وإياها، غلبت عليه "لأنها فيها طبيعة مركبّة، وجبلّة مفطورة"[76].

فمن استطاع مجاهدة نفسه، أصبح كثير الصديق، قليل العدو، وضمن السعادة والسلامة، في العاجلة والآجلة. هذا هو العلاج البعيد عن كل تناصر وصراع، لكنه علاج عسير وشاق.

دراسة في المنهج والتشكيل الفني:

– بداية، لابد من أن نسجل للجاحظ فضل السبق، في ميدان التأليف في موضوع الحسد والحاسد والمحسود. صحيح أن الحسد قديم قدم الإنسان، وقد قيل فيه الكثير، ولكن أن يتحول إلى موضوع، يؤلف فيه كتاب أو رسالة، تضم كثيراً مما قيل فيه، وشرحاً لماهيته وعلله ونتائجه، وتحليلاً لأخلاق الحساد وأفعالهم، فذلك أمر، لم يسق الجاحظ إليه أحد، وهذا ما أكده الجاحظ نفسه في مقدمة الرسالة.

لقد سمع الجاحظ الكثير مما قيل في الحسد، من أخبار وأقوال، وأشعار وحكايات، في المجالس التي كان يغشاها، واطلع على الكثير منها من خلال مطالعاته الواسعة في الكتب والأسفار، فأثارت فضوله، ولاقت هوىً في نفسه، فعمد إلى عقله يستمد صوبه، وإلى ذاته يستعين بتجربتها، فجمع بين الخاص والعام، وبين التجربة الفردية والتجربة الإنسانية، وأخضع ذلك كله لنزعته الفنية، ولأسلوبه الأدبي السمح، البعيد عن التكلف والمعاظلة، وجعل من ذلك كله، موضوعاً أدبياً خالصاً، أثمر هذه الرسالة، التي جاءت قطعة فنية نادرة، خالدة خلود النفس الإنسانية.

– وما يلفت النظر في هذه الرسالة، غزارة المعاني، وتدفقها، فإذا ما عرض الجاحظ لفكرة ما، نجده يعرض أمامنا صوراً لا تنتهي، ويمدنا بسيل من المعاني المتلاحقة، معززاً آراءه بالآيات البيّنات، والأحاديث الشريفة، والأمثال السائرة، والأقوال المأثورة، والأشعار المتينة، ومازجاً ذلك كله، مزجاً محكماً، لا يقدر عليه إلا أديب فنان، له

(76) – رسالة المعاش والمعاد، 92/1.

بصر نافذ، بطرق الكتابة وفنونها وأساليبها. فهو، على سبيل المثال، يعرض فكرة استحالة كسب ودّ الحاسد، وغباء من يحاول ذلك، بعد أن تبين له الأمر بالدليل والحجة والبرهان، فيقول: "وما أحب أن تكون عن حاسدك غبياً، وعن وهمك مما في ضميره ونيساً، إلا أن تكون للذل محتملاً، وعلى الدناءة مشتملاً... أو أن تكون بك إليه حاجة، قد صيرتك لسهام الرماة هدفاً، وعرضك لمن أرادك غرضاً. وقد قيل على وجه الدهر: (الحرة تجوع ولا تأكل بثدييها)[77]، وقلت: إنك ربما غلطت في أمره، لما يظهر لك من برّه، ولو كنت تعرف الجليل من الرأي، والدقيق من المعنى، ....ولم تك في عيب من ظهر لك عيبه مرتاباً، لا ستغنيت بالرمز عن الإشارة، وبالإشارة عن الكلام، وبالسر عن الجهر، وبالاختصار عن التطويل.... فما هذا العناء، وما هذا الداء العياء! كأنك لم تقرأ المعوذة، ولم تسمع مخاطبته نبيّه في التقدمة إليه بالاستعاذة من شر حاسد إذا حسد. أتطلب ، ويحك، أثراً بعد عين، أو عطراً بعد عروس، أو تريد أن تجني عنباً من شوك، أو تلتمس حلب لبن من حائل. إنك إذن أعيا من باقل، وأحمق من الضبع، وأغفل من هرم....."[78].

وهكذا فقد ساق الجاحظ فكرته، في أكثر من ثلاث صفحات، فشقق في الكلام، وتناول الفكرة من كل أطرافها، فبيّن دقيقها وجليلها، ونقل المعنى كما هو ماثل في ذهنه، بكل دقة وقوة ووضوح، وحشد لذلك الأمثال المتلاحقة. ولا ريب أن القدرة على إبراز المعنى، وقوة التعبير عنه، هي التي تظهر قوته وتأثيره، وهذا ما عبر عنه الجاحظ مراراً في بيانه، كقوله: "وإنما تحيا المعاني في ذكرهم لها، وإخبارهم عنها، واستعمالهم إياها، وهذه الخصال هي التي تقربها من الفهم، وتجليها للعقل، وتجعل الخفيّ منها ظاهراً .....وكلما كانت الدلالة أوضح وأفصح، وكانت الإشارة أبين وأنور، كان أنفع

(77) – المثل في مجمع الأمثال، 122/1، وجمهرة الأمثال، 255/1.

(78) – الحاسد والمحسود، 15/3–17. والأمثال التي وردت في النص، هي في مجمع الأمثال، وجهرة الأمثال.

وأنجع.... لأن مدار الأمر، والغاية التي يجري إليها القائل والسامع، إنما هو الفهم والإفهام، فبأي شيء بلغت الإفهام، وأوضحت المعنى، فذلك هو البيان"[79].

وما من ريب، أن خصوبة المعاني، في كتابات الجاحظ، ومقدرته العجيبة على تفتيق الفكرة، والدوران بها في كل اتجاه، كان ثمرة صنعته الكلامية. فالجاحظ ، كما هو معروف، عالم من علماء الكلام، وزعيم فرقة من فرق المعتزلة، وهؤلاء عرفوا بنزعتهم الجدلية، وميلهم إلى تدعيم آرائهم بألوان ثقافاتهم، لكن ما يميز الجاحظ عنهم، هو نزعته الفنية، التي غلبت على كل ما كتب، وقدرته على الأداء والتعبير بسهولة ويسر، ما جعله ناطقاً باسمهم، ومروجاً لأفكارهم[80]. إن هذه النزعة الفنية، التي طبعت كتاباته، هي التي جعلته رائداً لطور جديد في الكتابة العربية، وأبرزت مكانته في تاريخ النثر الفني، فقد "ساعدته على أن يتناول نظريات العلم، وقضايا الدين، ومشكلات الفلسفة، بالأسلوب الأدبي، فلم يفقد صفته الفنية في أي مجال من مجالات القول"[81].

والجاحظ بذلك كان صاحب فضل على الأدب والفلسفة جميعاً، "ففي الأدب كان فضله أنه أغزر معانيه، وجعل له موضوعاً، بعد أن كاد يكون شكلاً بحتاً.... وفضله على الفلسفة أنه صاغها صياغة أدبية قريبة إلى الأذهان.... ويخرج من ذلك كله إلى نتيجة تلذ القارئ، وتغذي العقل"[82].

– أما فيما يخص رواية الجاحظ للأخبار والأمثال والأشعار، والاستعانة بها في تدعيم أفكاره، فهي لا تخرج، أيضاً، عن دائرة ميوله الفنية، كما أكدّ هو نفسه. ففي مقدمة كتابه عن الحسد (كما سماه)، يصف الكتاب بأنه "نبيل بارع"، ويؤكد أن شرف المعنى، ونبل المقصد هما سبب وصفه لهذا الكتاب بالنبل، يقول: "وإنما نبلت هذه الكتب،

(79) – البيان والتبيين، 42/1 – 43.

(80) – ينظر الملل والنحل، للشهرستاني، القسم الأول، ص 71.

(81) – النثر الفني وأثر الجاحظ فيه، عبد الحكيم بلبع، ص 227.

(82) – ضحى الإسلام، أحمد أمين، ج3، ص 128 – 129.

وحسنت، وبرعت، وبذّت غيرها، لمشاكلتها شرف الأشراف، بما فيها من الأخبار الأنيقة، والأمثال الحسنة اللطيفة، والأحاديث الباعثة على الأخلاق المحمودة، والمكارم الباقية المأثورة..."(83). فأساس الاختيار فيما يرويه، كما يشير هنا، هو المعاني التي تصلح النفوس، وتقوّم الفساد، ويضيف إلى ذلك في بيانه سبباً آخر، وهو جمال العبارة، وجودة اللفظ، وحسن الديباجة، وهذا هو منهج الكتّاب والشعراء في الرواية، وهو أحدهم، يقول في وصف هذا المنهج، إنهم " لا يقفون إلا على الألفاظ المتخيرة، والمعاني المنتخبة، وعلى الألفاظ العذبة، والمخارج السهلة، والديباجة الكريمة، وعلى الطبع المتمكن، وعلى السبك الجيد، وعلى كل كلام له ماء ورونق، وعلى المعاني التي إذا صارت في الصدور عمرتها، وأصلحتها من الفساد القديم، وفتحت للسان باب البلاغة... ورأيت البصر بهذا الجوهر من الكلام في رواة الكتاب أعم، وعلى ألسنة حذاق الشعراء أظهر"(84). وهذا المنهج يختلف، برأيه، عن منهج النحويين ورواة الشعر في الرواية، كالأصمعي وأبي عبيدة وخلف الأحمر وغيرهم... الذين يقوم منهجهم على أساس الشعر الغريب، وكل ما يعثرون فيه على الشاهد والمثل.

ولو استعرضنا ما استشهد به الجاحظ من أمثال وأقوال مأثورة، وأخبار وأشعار –وقد ذكرنا بعضاً منها– لتبيّن لنا حقيقة الطابع الفني لاختياراته، وأن المعاني الشريفة، والألفاظ المتخيرة، والأسلوب العذب، والديباجة المشرقة، وكل ما ذكره الجاحظ في نصه السابق، هي التي وجهته في ذلك.

– ويلفت نظرنا في الرسالة، سمة لونت أدب الجاحظ عامة، وهي وضع الأحاديث والأخبار على لسان هذا أو ذاك، أو ما عرف بظاهرة الوضع الفني. وقد أشار إليها الباحثون، وبسط القول فيها طه الحاجري في مقدمته لكتاب البخلاء، وأثبت أن الجاحظ كان يضع الأحاديث ويولدها باعترافه، وأنه كان خبيراً بهذا الفن، "يعرف مواطن قوته

(83) – الحاسد والمحسود، 237/1.

(84) – البيان والتبيين، 196/3.

وضعفه، وأسباب إحكامه وتهافته"[85]. وقد رد الحاجري آراء من وجد في هذا الوضع، نوعاً من الكذب والتزوير، كما كان عند حماد الراوية وخلف الأحمر، وكما وجد في عصر النبوّة، إذ وضعت الأحاديث لغايات سياسية ومذهبية، ورأى أن الوضع عند الجاحظ يختلف كلياً عن هؤلاء، فهو "قد أخلص الوضع للفن وحده، أسلوباً وغاية"[86].

والحق، أن الجاحظ لجأ إلى الوضع ليكسب أسلوبه الحيوية والحياة، وليبتعد به عن جفاف التقرير والتجريد. ومن يقرأ رسالة الحاسد والمحسود، لابد أن يتبين له، ما لظاهرة الوضع من أثر قوي، في جمال التصوير، ودقة المعنى، وتحقيق المتعة الفنية. لكن الأمر عنده لا يخلو من غايات شخصية، كالترويج لفكرة، أو قضية، آمن بها. يقول شوقي ضيف في هذا الخصوص، تعليقاً على المناظرة الطويلة، بين الديك والكلب، التي وضعها الجاحظ، في كتاب الحيوان، على لسان معبد والنظام: "في حقيقة الأمر، فليس هناك معبد ولا النظام، وإنما هناك الجاحظ بلسنه وقدرته الرائعة على دراسة الموضوعات، سواء اتصلت بالحيوان، أو لم تتصل، وهناك العرب والشعوبية، التي تستقذر الكلب وحيوانات الصحراء..."[87].

وشبيه بهذا، في رسالة الحاسد والمحسود تلك المناظرة التي صاغها الجاحظ ووضعها على لسان بشر المرّيسي، أحد كبار علماء الكلام، وفيها يقول الجاحظ: "قال لي بشر المرّيسي: عرض كتابي على المأمون في تحليل النبيذ، وبحضرته محمد بن أبي العباس الطوسي، فانبرى للطعن عليه والمعارضة للحجج التي فيه، وأسهب في ذلك وخطب.... ففلق المأمون واحتدم .....وكان يحب أن يزعه وازع يكفه بحجة تسكته، فلما لم ير أحداً بحضرته يذبّ عن كتابي، قال متمثلاً:

يا لك من قُبّرة بمعمر خلا لك الجو فبيضي واصفري
ونقري ما شئت أن تنقري "[88].

(85) – مقدمة الحاجري لكتاب البخلاء، ص 41.
(86) – السابق، ص 45.
(87) – تاريخ الأدب العربي، العصر العباسي الثاني، ص 598.
(88) – الحاسد والمحسود، 1/240–241، والأبيات لطرفة بن العبد في ديوانه، ص 46.

ويستمر الجاحظ في عرض المناظرة على لسان بشر، الذي دخل مجلس المأمون فسأله على الفور عن رأيه في النبيذ، فأطنب بشر في معاني تحليله، وابن عباس ساكت لا ينطق، بعد أن كان قبل دخول بشر ناطقاً لا يسكت. لقد تهرّب من مناظرة بشر، حين أقر أن لا خلاف بينهما، ما جعل المأمون يقول في النهاية: "إن الكتب عقول قوم وراءها عندهم حجج لها، فما ينبغي أن يقضى على كتاب إلا إذا كان له دافع عنه، وخصم يبين عما فيه، فإن أبناء النعم محسودون"(89).

فالجاحظ هنا، يضع المناظرة، في موضوع تحليل النبيذ، على لسان من هو خبير بعلم الكلام والجدل، ويشرك فيها الخليفة المأمون، الذي تبنى مذهب الاعتزال. وهذا يؤكد خبرته في فن الوضع، فلا فائدة من الحكاية، إن لم تكن هناك صلة بينها وبين أهلها، وبوجود الصلة بين الحكاية والواقع، أكسب الجاحظ حواره، حيوية وحرارة وواقعية، ومقدرة على الإقناع والإمتاع.

ولا يخفى أن الجاحظ في هذه المناظرة، أراد أن يروج لقضيتين، الأولى، تحليل النبيذ، والثانية، وهي الأهم عنده، فكرة عدم قبول الطعن في كتاب، دون وجود من يدافع عنه. وما عزّز قناعتنا بأن هذه المناظرة من وضع الجاحظ، أننا لم نسمع بكتاب لبشر المريسي في تحليل النبيذ، وعلى العكس من ذلك، فقد ألف الجاحظ رسالتين في هذا الموضوع، الأولى بعنوان "مدح النبيذ وصفة أصحابه"(90)، والثانية بعنوان "الشارب والمشروب(91). وقد احتج فيهما لتحليل النبيذ وتحريم الخمر، ووصفه وصفاً دقيقاً، وبين مزاياه، وأثره في النفس والجسم، ورد بجرأة على رجال الحديث الذين حرموا الأنبذة، وجعلوها كالخمر، مع عدم وجود إجماع على ذلك في السنّة الشريفة.

(89) – السابق، ص 242.

(90) – الرسالة في الجزء الثالث، ص 81 – 93.

(91) – الرسالة في الجزء الرابع، ص 199 – 216.

ولا يخفى ما في هذه المناظرة من طوابع عامة لعصر الجاحظ، في جوانبه الثقافية والفكرية والسياسية وغيرها، كصراع المذاهب والأفكار، وانتشار الجدل والمناظرة، وخاصة في قصور الخلفاء، وعلى رأسهم المأمون، الذي كان يشجع الحوار والمناظرة، ويشارك فيها أحياناً، كما تشير المصادر التاريخية.

– أما عن لسن الجاحظ، ومقدرته الرائعة على إخضاع موضوعات العلم والفلسفة، وتحويلها إلى موضوعات أدبية، فيها المتعة والجمال والفائدة، فذلك ما فاق به الجاحظ، أدباء العصر العباسي، وذلك ما بدا واضحاً في رسالته عن الحسد، وهو ما أشرنا إليه في أماكن عدة من هذا البحث، ولا بأس أن نستكمل ما كنا قد أشرنا إليه.

لقد أحاط الجاحظ بمعظم مفردات العربية، ولا نستغرب ذلك ممن قرأ كل ما وقعت عليه يداه، وخبر الناس على اختلاف طبقاتهم، وثقافاتهم وصناعاتهم، فحفظ ألفاظهم ومصطلحاتهم، مما كون له تلك الثروة اللغوية العجيبة، التي أمدته في كل موضوع، فإذا ما بدأ الكتابة، انثالت عليه الألفاظ انثيالاً، فما يعوزه لفظ، ولا تعجزه كلمة، بل يمتلك القدرة على اختيار اللفظة المناسبة، ليضعها في مكانها المناسب، ويعبر بها عن المعنى الذي توحي به، ولا تنسجم إلا معه، وفي كل ما أثبتناه في هذا الحديث، من شواهد، دليل قوي على ذلك، وكذلك في قوله يصف الحاسد وأذاه، "ومتى رأيت حاسداً يصوّب لك رأياً إن كنت مصيباً، أو يرشدك إلى صواب إن كنت مخطئاً، وأفصح لك بالخير في غيبته عنك، أو قصر في غيبته لك، فهو الكلب الكَلِب، والنمر الحرب، والسمّ القشب، والفحل القطم، والسيل العرم،.....حياتك موته، وموتك عرسه وسروره، يصدق عليك كل شاهد زور، ويكذب فيك كل عدل مرضي. لا يحب من الناس إلا من يبغضك، ولا يبغض إلا من يحبك، عدوك بطانة، وصديقك علانية"[92]. هذه هي لغة الجاحظ المرنة، المطاوعة، التي تسعفه في كل قول.

(92) – الحاسد والمحسود، 16/3.

والجاحظ فقيه في اللغة، عليم بأسرارها، وفوق ذلك فهو صاحب حس مرهف وذوق رفيع، وقد عرف، لذلك أهمية الكلمة في جمال أي عمل أدبي، فدعا دائماً إلى الدقة في اختيار الكلمة، وإلى الملاءمة بينها وبين معانيها، وإلى مطابقة الكلام لمقتضى الحال، وقد جعل من وصاياه تلك أساساً لأي كلام بليغ. يقول في بيانه: "لا يكون الكلام يستحق اسم البلاغة حتى يسابق معناه لفظه، ولفظه معناه، فلا يكون لفظه إلى سمعك أسبق من معناه إلى قلبك"(93). وهو يدعو دائماً إلى هجر الغريب الوحشي، والهجين السوقي، وإلى لغة وسط بين لغة العامة ولغة الخاصة(94). ويحذر من التوعر والتعقيد، لأن التعقيد يستهلك المعنى، ويشين اللفظ، "ومن أراد معنىً كريماً فليلتمس له لفظاً كريماً، فإن حق المعنى الشريف اللفظ الشريف"(95)، وحق المعنى السخيف اللفظ السخيف(96). إلى غير ذلك من الوصايا، التي انتشرت في كتبه وخاصة في بيانه، وقد طبق ما دعا إليه، في كتاباته، والتزم به بدقة، ومن يقرأ آثاره، ومنها رسالة الحاسد والمحسود، لابد أن يلاحظ هذا الالتزام، في بعده عن الغريب الوحشي، وعن السوقي المبتذل، وعن التكلف والمعاظلة والاستكراه، وسيرى أنه لم يقحم كلمة في غير مكانها، وأنه واعم بين ألفاظه ومعانيه. فهو في المناظرة التي وضعها على لسان بشر المريسي، يستخدم مصطلحات المتكلمين، كالحجة والدليل والمناظرة والمخاصمة والخصم. كما يستخدم في أماكن أخرى منها، مصطلحات، العرض والجوهر، والظاهر والباطن، والطبع والاكتساب، والروح والجسد، والخير والشر، وغير ذلك من مصطلحات المتكلمين، التي يجدر بالمتكلم أن يتلفظ بها، ويقبح منه أن يفتقر إليها، لأن لكل صناعة ألفاظاً بعينها، لا يجوز إغفالها، يقول: "وأرى أن ألفظ بألفاظ

(93) – البيان والتبيين، 63/1.
(94) – السابق، ص 80.
(95) – السابق، ص 75.
(96) – السابق، ص 81.

المتكلمين، مادمت خائضاً في صناعة الكلام....ولكل صناعة ألفاظ، قد حصلت لأهلها بعد امتحان سواها، فلم تلزق بصناعتهم إلا بعد أن كانت مشاكلاً بينها وبين تلك المعاني، وقبيح بالمتكلم أن يفتقر إلى ألفاظ المتكلمين..."[97].

وكما أوصى الجاحظ بالدقة في اختيار اللفظة، كذلك أوصى بضرورة التزام السلاسة والوضوح، ومراعاة الحلاوة والطلاوة في العبارة، فجاءت عباراته تلذ الأسماع، بما فيها من موسيقى وإيقاع. ومع أنه لم يلتزم السجع بل لم يستخدمه إلا قليلاً، وحين يأتي به الطبع، ويتطلبه المعنى، فإن النغم الموسيقي الجميل لم يكن يفارق عباراته، فهو "يسعى دائماً إلى إحداث ضروب من التوقيع، وهو توقيع كان يلتمسه في معادلة ألفاظه معادلة تنتهي إلى هذا التوازن الصوتي الدقيق، فكل جملة تقابل أختها في موازين الجاحظ الموسيقية، وهي موازين تحقق لصيغه هذا اللون من الجمال الموسيقي، الذي كان يسميه القدماء ازدواجاً، ونسميه إيقاعاً وتلويناً صوتياً بديعاً"[98].

ولو رحنا نتلمس هذا التوقيع الصوتي في رسالة الحاسد والمحسود لأذهلنا الجاحظ بقدرته على إشاعة هذا التلوين، وهذا النغم الجميل، على مدار الرسالة، فلنستمع إلى نموذج من أنغامه في قوله: "إنه لا يأتيك ولكن يناديك، ولا يحاكيك ولكن يوازيك، أحسن ما تكون عنده حالاً، أقل ما تكون مالاً، وأكثر ما تكون عيالاً.... والغلّ نتيج الحسد، وهو رضيعه، وغصن من أغصانه، وعون من أعوانه، وشعبة من شعبه، وفعل من أفعاله، كما أنه ليس فرع إلا له أصل، ولا مولود إلا له مولد، ولا نبات إلا من أرض، ولا رضيع إلا من مرضع، وإن تغير اسمه، فإنه صفة من صفاته، ونبت من نباته، ونعت من نعوته"[99]. نلاحظ هنا، النغم الجميل، الذي يلازم جمله، وقد أتى بالسجع، ولكن لم يلتزمه، ولجأ إلى الازدواج، ولكن ليس دائماً، ومع ذلك جاءت

(97) – الحيوان، 368/3.

(98) – الفن ومذاهبه في النثر العربي، ص 169.

(99) – الحاسد والمحسود، 18/3.

عباراته متعادلة موزونة، فأمتعت الآذان بأنغامها، وأراحت النفوس بانسجامها وانسيابها، وكانت هذه دربه، التي سار عليها، في رسالته هذه، وفيما أوردناه منها من مقاطع يتضح هذا الأمر بجلاء.

–ومما يلفت النظر في رسالة الجاحظ، أنها خلت تماماً، من سمة بارزة عنده، هي روح المرح والضحك والدعابة والسخرية، التي طبعت أدبه عامة، وجعلته يخلط الجد بالهزل، ويمزج الحقيقة العلمية الجافة بالنكتة المرحة. ويمكن أن نفسر ذلك بأكثر من سبب، الأول، هو أن الجاحظ ألف الرسالة في سني حياته الأخيرة، حين كان يعاني من المرض الشديد. والسبب الثاني والأقوى، هو أنه كتبها في فئة ذميمة، منبوذة، شرورها لا تنتهي، وقد عانى الجاحظ منهم، ونغصوا عليه حياته، فكان من الطبيعي أن يقف منهم موقفاً فيه الكثير من الغيظ والاشمئزاز، وبذلك يكون قد افتقد شرطاً أساسياً من شروط الضحك، التي وضعها برجسون وهو "غياب الانفعال، أو الشعور العاطفي، فالخصم الأعظم للضحك هو الانفعال"[100] و " اللامبالاة وسطه الطبيعي"[101].

والجاحظ الذي عرف بهدوئه ومرحه وحبه للضحك، وتناوله لعيوب الناس والمجتمع بنوع من السخرية الناقدة، التي ترسم البسمة على الوجوه، توقف عند الحاسد، فأظهر غضبه، وغيظه الشديد، منه ومن كل من يتغابى عنه بعد أن عرفه على حقيقته، وها هو يخاطبه بحدّة وعنف: " وما أحب أن تكون عن حاسدك غبياً....إلا أن تكون للذل محتملاً، وعلى الدناءة مشتملاً، ولأخلاق الكرام مجانباً، وعن محمود شيمهم ذاهباً..... إن كنت تجهل بعد ما أعلمناك، وتعوّج بعدما قوّمناك، وتبلّد بعدما ثقفناك، وتضل إذ هديناك، وتنسى إذ ذكرناك، فأنت كمن أضله الله على علم، فبطلت عنده المواعظ،

(100) – الضحك، بحث في دلالة المضحك، ص 18.

(101) – السابق، ص 17.

وعمي عن المنافع، فختم على سمعه وقلبه، وجعل على بصره غشاوة فنعوذ بالله من الخذلان"[102]. هذه اللهجة الحانقة، نسمعها من معظم صفحات الرسالة.

لكن هذا لا يقلل من القيمة الفكرية والفنية، للرسالة، فهي ظاهرة بكل وضوح.

وفي الختام، لابد لنا من القول، إن رسالة الحاسد والمحسود، تعدّ لوحة فنية من لوحات الجاحظ الخالدة، التي رسمها بقلمه الساحر، وبيانه الأخاذ، وطغت نزعته الفنية على كل شيء فيها. وهي طريفة في موضوعها، شريفة في أفكارها ومعانيها. في أسلوبها سلاسة وعذوبة ووضوح، وفي عباراتها نغم وموسيقى وامتاع.

(102) – الحاسد والمحسود، 18/3.

المصادر والمراجع

- ألوان: د. عبد الكريم الأشتر، دار الرضا، دمشق، ط 1، 2003.
- أمراء البيان: محمد كرد علي، مطبعة لجنة التأليف والترجمة والنشر، القاهرة، 1937.
- البخلاء: الجاحظ، تحقيق طه الحاجري، دار المعارف، القاهرة، ط 7.
- البصائر والذخائر: التوحيدي، تح. وداد القاضي، دار صادر، بيروت، ط1، 1984.
- البيان والتبيين: الجاحظ، دار الكتب العلمية، بيروت، لبنان.
- تاريخ الأدب العربي، العصر العباسي الثاني، شوقي ضيف، دار المعارف، ط3.
- الجامع الصغير: السيوطي، تح. محمد محي الدين عبد الحميد، طبعة مصورة.
- جمهرة الأمثال: أبو هلال العسكري، دار الجيل، بيروت، ط 2، 1988.
- الحيوان: الجاحظ، مطبعة مصطفى الحلبي، القاهرة، 1938.
- ديوان طرفة بن العبد: دار صادر، بيروت، 1980.
- ديوان المتنبي: شرح أبي البقاء العكبري، ضبطه مصطفى السقا، إبراهيم الأبياري.
- رسائل الجاحظ: تعليق محمد باسل عيون السود، دار الكتب العلمية، بيروت ط1، 2000.
- ضحى الإسلام: أحمد أمين، مكتبة النهضة المصرية، القاهرة، ط 7.
- الضحك: هنري برجسون، ترجمة سامي الدروبي، دار العلم للملايين، بيروت.
- العقد الفريد: ابن عبد ربه، شرح وضبط أحمد أمين، أحمد الزين، ابراهيم الأبياري، دار الكتاب العربي، بيروت، 1983.
- عيون الأخبار: ابن قتيبة، دار الكتب المصرية، 1925.
- الفن ومذاهبه في النثر العربي: شوقي ضيف، دار المعارف بمصر، ط6.
- لسان العرب: ابن منظور، دار صادر ، بيروت.
- مجمع الأمثال: الميداني، تحقيق محمد محي الدين عبد الحميد، دار القلم، بيروت.

- محاضرات الأدباء: الراغب الأصفهاني، دار مكتبة الحياة، بيروت.
- معجم الأدباء: ياقوت الحموي، مطبعة دار المأمون، الطبعة الأخيرة.
- الملل والنحل: الشهرستاني، تحقيق محمد بن فتح الله بدران، مكتبة الأنجلو المصرية، ط2.
- النثر الفني وأثر الجاحظ فيه: عبد الحكيم بلبع، مكتبة الأنجلو المصرية، القاهرة، 1955.

تاريخ ورود البحث إلى مجلة جامعة دمشق 2015/6/17